نزهة القراءة

فهد حسين

في قلوبنا .. نسمعك ونحاورك (2-2)

جاءت كل القضايا لتنام في تابوت من القطن سعيدة متألقة، فلا تندهش لحسرة الأطفال وهم ينتظرون كأسًا من الحروف بعد فترة طويلة من الزمن، فكنت حالة من التواصل بين أفئدة الأطفال وخبز المعرفة، لم تكترث بالأسماء الكبيرة أو الصغيرة، فكلها تعني لك إنسانًا يحلم بقوس قزح في منزله، لا التاريخ ولا الأسماء ولا الثياب كانت هي العرس البهي، بل الأتربة الندية التي تتلاقى بأحذية الأطفال والصبية لترسم ميلادًا تشعل به القنديل عند بوابة المعرفة، فلا ضياع في حضرة الكلمة، ولا حسرة في البقاء، فقد رسمت البسمة على شفاه الأطفال وهم يتجهزون إلى رحلة طفولية بريئة، رحلة يتلقون فيها علمًا يحلمون أن يصطادوه، حلمًا يراودهم لأنهم يرون شخصك ماثلاً في رحلتهم، وفي نومهم وبين دفاترهم التي لم تغلف إلا برائحة الكلام، وزخرف النكات..

أيها البعيد جسدًا.. القريب روحًا وعطاء.. رحلت من دون أن تعلن السفر، قطعت تذكرة الدخول إلى عالم يأخذك في قطاره الطويل عبر البعيد، كما قطعت تذاكر الزمن الذي كنت تصارع فيه الخرفات، وتحاول أن تجد القوانين التي تجسر الطريق بين العقول والقلوب وهي تتشظى.. آمنت بأن الكلمة تلد كلمة أخرى لكي تخرج الحروف متماسكة مترابطة كأعضاء طفل ولد لتوه لا يعرف السؤال، ويتجاهل الإجابات الخائفة، فلم تشنق الكلمة، ولم تغتال حلم القلم الذي يرغب في تسويد الورقة، وكنت ترفض دومًا البسمة العرجاء التي تنام على شاطئ البحر.

أصبحت لهم ضياء وكانوا لك مفاتيح العبور نحو الجبل، كانوا ينثرون هالاً ووردًا لكي تنام قرين العين والفؤاد، كانوا يضعون الأغصان على جدار المحبة لكي لا تخترق الشمس ميلاد القيلولة، نم ولا تحزن، نم مستقرًا بين هذه الجدران التي تحفظ لك كيانك وعبورك نحو الفردوس، نم بعد مفترق الطرق ولا تكن مذهولاً من تعدد الأسماء فالكسالى لا يعرفون متى ينامون ولا يعون كيف يبتهلون، وقد كنت معلمًا طيلة تلك الرحلة فلم تبخل على ضيوفك بمائدة اللغة والفكر والثقافة التي شكلت لك هاجسًا فنيًا وثقافيًا، هؤلاء ضيوفك وأنت ضيفهم، فأنت وهم أحدثتم عاصفة من الأسئلة، وإجابات لتسهموا في رسم خريطة ثقافية للبحرين، لذلك لا تخف برحيلك عنا، فنحن حافظون لمنجزك المعرفي والثقافي، فنم واسترح في صومعتك، ففي الصمت تعيش هذه الأجساد بصمت القول، وعلى عتبات التلة تقف وردة مهداة إلى الكل هذه الأجساد المثمرة التي هربت من النوم إلى النوم، ومن الجوع إلى الجوع، ومن الميلاد إلى الميلاد.

لا نستطيع إدراك العالم الذي عشته إلا في عالمك الثقافي، فما كتبته وأصدرته كان ولايزال وسيكون هو الوسيط الرمزي والإبداعي والثقافي بين الذات التي أنجزته وهي الآن غائبة عنا، وبين العالم المتلقي الذي يقول لك: أيها المتوسد حلم الحياة الثانية، تركت لنا نصًا علينا فهمه، نصًا قد يختلف عن معناه، نصًا يحمل في أبعاده حالة من التأمل.. أيها البعيد.. لن ينساك التاريخ، وسيلهث الوقت وراء تلك الأغصان التي تركتها خلف أشجار الصنوبر، وعند عتبات الغرفة الخالية إلا من رائحة مدوناتك وأحبار أقلامك، وبعض سجلاتك المتناثرة، سيذكرك طلابك والطلاب الذين تتلمذوا على يديك، ستنال المكانة اللائقة بأحلامك، وألوان فرحك، وملامح نظراتك، ستسكن في أجساد لا حدود لها، وفي زمن يعشق الفضاء، لن تستطيع الاختفاء إلا من العيون، سيكون طيفك وسادة في السفر، وقلادة معلقة على الصدور.

تخبط وعدم الوعي في المضمون.. وفي التقنية

ت المضمون بين عمق وسطحية الرؤية

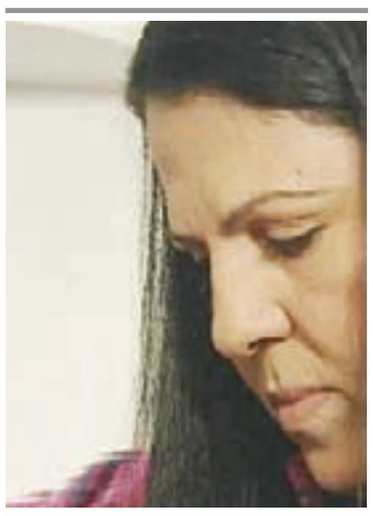

■ أمين صالح

■ كريم رضي

■ حسن حداد

وفي المحاولة بشكل عام، فأغلب المخرجين لا يحاولون معرفة ماهية السينما أساساً ولا ماهية ما يفعلونه، كل ما في الأمر بالنسبة لهم أن فكرة ما تؤاتيه ويحاول تحويلها إلى فيلم قصير، دون أن يعود بهذه الفكرة إلى متخصصين وكتاب قد يفيد منهم في عملية تنفيذ هذه الفكرة، وينفذ الفيلم ويشارك به في مهرجانات، وهكذا تتكون فكرة مغلوطة عن أفلام الفيديو في البحرين».

ولكنه يستدرك «بالطبع هذا لا ينفي وجود أصوات شابة تحاول بجدّية في هذا الجانب، ومن بينها الفنان حسين الرفاعي الذي قدّم مؤخراً فيلمه (عشاء) بعد فترة طويلة من الهم السينمائي والمراقبة الجادة لواقع الفيلم القصير، و(عشاء) بالنسبة لي يعد من أنضج التجارب في الفليم القصير، وقد كتب سيناريو الفيلم الكاتب أمين صالح كما هو معروف».

الشاعر كريم رضي من جهته أشار لما هو أبعد من قضية الفيلم القصير أو فيلم الفيديو، بل ربما أشار إلى خلل أعمق من مسألة الاهتمام بتجويد الإبداع سواء في الفيلم القصير أو غيره عبر تأكيده على ما أسماه «عصر خليك إيزي» فيقول «القضية ليست فقط في أفلام الفيديو، هناك بحث عن السهولة في كل شيء. شعراء بالكاد يبدأون مشاريعهم وإذا هم يتذمرون من أن أحدا لا ينشر لهم، ويغامرون دون حياء بإصدار كتاب تلو الآخر دون توقف وتساؤل، لماذا؟ وكيف؟ مسرحيات تسلق بروفاتها في أسبوعين، «كتب» عن تاريخ الجماعات والأمم تنشر دون الإشارة إلى مرجع واحد!! مجموعات قصصية وشعرية تصدر دون أدنى مراجعة لأخطاء النحو والإملاء، فاستطرادا إذن، لماذا نفترض أن أفلام الفيديو ستكون استثناء؟».

ويواصل رضي هجومه على ظاهرة الاستسهال «مواقع جميلة لكنها خالية تماما من الفكر والكلمة، ليس فيها ما هو جيد غير التقنية وشكل الموقع والصور وكان الله غفورا رحيما، وتسأل نفسك كيف يتجشم صاحبه هذا العناء لإيجاد موقع، ثم إذا هو خلو من كل شيء غير التقنية والإبهار؟».

ثم يردف «ما يحدث إذن في أفلام الفيديو من ازدراء العمل والجد والتعويل على الفهلوة وبيع الهواء وممارسة الجنس مع النمل وغير ذلك من الذي يطلق عليه الإنجليزBLUFFING ليس استثناء في الحالة البحرينية بل هو القاعدة، والغريب أصلا في عصر خليك EASY أن تجد من هو مستعد أن يعمل فيلم فيديو مرورا بكل المعاناة التي يعانيها المنتج والمخرج السينمائي».

وينهي رضي حديثه بالسؤال ذي الاتجاهين «أكاد أتحدث مثل المرحوم حسني البرزان (نهاد قلعي) وهو يندب حظه العاثر قائلا ومكررا (لكي نعرف ما في إيطاليا علينا أن نعرف ما في البرازيل ولكي نعرف ما في البرازيل علينا أن نعرف ما في إيطاليا» فأقول لكي نعرف ما في أفلام الفيديو علينا أن نعرف ما في كل الفنون من استسهال الطبع والنشر دون أن يرف لهؤلاء جفن واحد، وبالتالي مالم يصلح واقع الانتاج الثقافي نفسه بإضافة مزيد من المعايير التي توقف طوفان الاستسهال فسيبقى فيلم الفيديو هابطا دون أمل في التغيير».

السيناريو.. ولغات الكاميرا

النقطة الثانية التي أردنا طرحها في تحقينا هذا تتعلق بوعي مخرجي وكتاب وصانعي الأفلام القصيرة في البحرين للفروقات فيما بين السينما الطويلة وأفلام الفيديو القصيرة، سواء من حيث الشكل أو المضمون خصوصاً وأننا نرى كيف أن المخرجين يتكئون في الغالب على أفكار، وليس على سيناريوهات مكتوبة من خلالها يمكن التأكيد على وجود كتاب سيناريو، وهنا يؤكد أمين صالح على أن «المتابعة السليمة والجيدة لما يُنتج هنا من أفلام سوف تكشف لنا دون عناء أن هناك كتاب سيناريو.. قلة، لكنهم موجودون».

ويضيف «في السينما، ليس شرطاً أن يكون مؤلف السيناريو كاتباً بالمعنى الأدبي. غالباً ما نلاحظ – في السينما العالمية – أن المخرجين هم الذين يؤلفون أفلامهم، إما بمفردهم أو بالاشتراك مع كتاب آخرين. إذن، هذا ليس عيباً ولا نقطة ضعف، بل هي حالة إبداعية خلاقة تماماً، وضرورية تماماً. المخرج هنا يبدع فيلمه الخاص، محققاً رؤيته الخاصة، وكما قلت قبل قليل، كل فيلم يقوم على سيناريو، على نص. لا فيلم ينشأ من فكرة مجردة، هلامية، بلا أساس يتصل بموضوع ما».

فيما يرى المخرج محمد جناحي بأن «كثير من المخرجين الشباب لا يعون تماماً الفرق فيما بين فيلم الفيديو والفيلم القصير والفيلم السينمائي والفيلم السينمائي الطويل، وربما أيضاً يكون كثيرون يعتمدون على كاميرا التصوير للتفريق فيما بين الأشكال السابقة، فلو كانت الكاميرا سينمائية فسيكون الفيلم سينمائياً بنظرهم حتى وإن كانت اللغة المستخدمة في الصورة ليست كذلك، وكذلك الأمر بالنسبة لو كانت الكاميرا تلفزيونية أو كاميرا فيديو، بينما الأمر ليس كذلك بتاتاً، الأمر كله يعود إلى اللغة التي تستخدمها الكاميرا أو المخرج الذي يقف وراء هذه الكاميرا، يعود إلى الفروق المهمة فيما بين أدوات كل فن من هذه الفنون».

ويذهب الناقد حسن حداد إلى أن «غالبية التجارب الفيلمية التي شاهدناها.. لم تهتم بالسيناريو على أنه هيكل الفيلم وقوامه نحو الوصول إلى الجودة.. فما ينتج في البحرين من أفلام قائم أساساً على فكرة تراود المخرج نفسه، فيقوم بكتابتها وتنفيذها.. وهذا بحد ذاته ليس عيباً.. إنما العيب هو الاستهانة بعنصر رئيسي وهام جداً من عناصر الفيلم».

ويعود حداد إلى التمايز فيما بين الفنون فيقول «لا بد من التفريق فيما بين الفيلم السينمائي والدراما التلفزيونية.. في الكتابة والإخراج والتصوير والإهتمام ببقية عناصر الفيلم الأخرى مستقلة. فما نشاهده يمكن اعتباره تجارب سينمائية غير ناظجة، وتعيش حالة من التخبط والتردد».

ويضيف «شخصياً.. لا أحبذ أن يقوم المخرج بكتابة السيناريو ـ على الأقل لصناع الصورة المبتدئين، فهذا الأمر سيقود حتماً، إلى توصيل رؤية أحادية الجانب لصانع الفيلم، وعدم الإستفادة من آراء الآخرين وخبراتهم الفنية والتقنية وحتى الحياتية».

بين الكاتب والسينما.. لماذا هذا الغياب؟

أخيراً كان لا بد من طرح سؤال يتعلق بالتقاء الحرف مع الصورة، فسألنا لماذا ينزوي غالباً الكتاب والروائيون والقصاص بعيداً عن أفلام الفيديو، بالرغم من تقارب الجو التخييلي فيما بين الفنين، ولو لاحظنا الأسماء التي تقدم في هذا الجانب سنراها أسماء محدودة، لماذا نلاحظ أن ثمة «تخصص» لا واعي لدى الكاتب البحريني، يجعل من الشاعر شاعراً وحسب، والسارد ساردا وحسب، ولا يفكر أحدهم في الالتقاء بفنون أخرى كالفيديو، وفي هذا الجانب توقع الكاتب أمين صالح «أن يشهد الوسط الثقافي، في الفترة القادمة، توجها جادا من قِبل الكتاب نحو السينما، التي ستفرض حضورها في الواقع المحلي والعربي. سوف نشهد تفاعلاً أقوى وتعاوناً إيجابيا بارزاً».

وأكد على أن «مسألة اهتمام الكاتب بمجالات أخرى، فنية أو أدبية، هي مسألة تتصل برغبة وذوق ومزاج ووعي وثقافة الكاتب نفسه، لا شروط هنا ولا إملاءات. سوف لن يخدم المجال الآخر إن لم يتوفر لديه الشغف بذاك المجال. وفي هذه الحالة، من الأفضل أن يبقى في حقله الخاص. السينما تحتاج إلى سينمائيين.. إلى أفراد شغوفين بها، لا إلى موظفين».

محمد جناحي من جهته لم يفهم بالضبط سبب غياب الكتاب عن العناية بالسينما وبالفيلم القصير وقال «لا أعلم حقاً سبباً لهذا الابتعاد من قبل الكتاب عن ممارسة فعل فني وثقافي كالكتابة للسينما وللفيلم القصير» وعن تجربته مع كتاب يقول جناحي «بالنسبة لي كانت لي تجربة مع الكاتب عبد القادر عقيل، ومحاولة أخرى مع الكاتب يوسف الحمدان في فلم (كاميرا) وقد اشتغلت على معالجة سينمائية لنص الحمدان، كذلك فإني أعمل حالياً على فيلم كتبه الفنان عبد الله السعداوي، وربما أشير هنا إلى أن الفنان السعداوي لديه كثير من السيناريوهات التي تحتاج من ينفذها، وتجربتي معها هي فيلم قصير بعنوان (غبار) أعتبره من أفلام السينما الفقيرة، وهي تجربة جديدة نحاول فيها الدخول إلى عوالم عدد من المدارس السينمائية من بينها الواقعية والسريالية والرمزية، ونحاول أن يثير هذا الفيلم عند عرضه جدلا».

ثم يجمل جناحي «نحن بالفعل نحتاج إلى أن ينخرط الكتاب في ممارسة هذا الفعل الكتابي الذي لا يقل عن الكتابة الأدبية، ولا أعلم حقاً لماذا ينفر الكتاب من الفيلم القصير، ربما يكونون يستصغرون قيمة هذا الفيلم، ربما لأن الأفلام القصيرة في البحرين ليس ثمة من يدعمها حقاً، كما يحدث في الإمارات وغيرها، فلو نظرنا للإمارات سنجد أن ثمة كتاب سيناريو عديدون يمارسون الكتابة للفيلم القصير».

حسن حداد من جانبه أكد على هذا الجانب وأضاف «أوافقك القول بأن الكتاب في البحرين بعيدون عن السينما، وهذا بالطبع دلالة على أن هؤلاء الكتاب لا تجذبهم تلك التجارب الفيلمية التي تصنع في البحرين.. الوحيدان اللذان تفهما الوضع، وأخذا على عاتقهما التواصل مع السينما، هما الصديقان أمين صالح، وفريد رمضان.. إن كان مع الدراما التلفزيونية، أو مع الفيلم السينمائي.. فأمين برغم أنه كتب أول فيلم بحريني روائي طويل، ألا وهو الحاجز للمخرج بسام الذوادي، فهو لم يكتب للسينما طوال العشرين عاماً الماضية.. نراه يعود هذا العام بفيلمه الروائي القصير (عشاء) للمخرج حسين الرفاعي.. وقبله فريد رمضان، بفيلمين، هما (زائر) و(حكاية بحرينية)، ويحضر لفيلمه الثالث في الوقت الحاضر».

ويضيف «فيما عدا ذلك.. يمكن أن نذكر تجربتي الشخصية مع فيلم (غياب)، الذي كتبت له السيناريو عن نص لأخي الشاعر قاسم حداد بعنوان (الوحيد وحده).. وكنت حينها متردداً لسنوات طويلة من دخول هذا المجال.. وذلك اقتناعاً مني بأن السيناريو لا بد أن يجد طريقه إلى الشاشة.. فهو ليس قصة أو رواية يمكن طباعتها ونشرها.. كنت في داخلي أشعر بأنني لن أكتب سيناريو يوضع في درج المكتب.. وتحقق ما كنت أصبوا إليه بجهود المخرج الطموح محمد راشد بوعلي.. وها هو الفيلم يحصل على جائزة لجنة التحكيم الخاصة لمهرجان الفيلم العربي في روتردام بهولندا.

وهي فرصة، أدعو فيها كتابنا في البحرين، للمغامرة ودخول مجال السينما المذهل، فهو الفن الشامل والأكثر شعبية، والمجال الرحب الذي يستوعب كافة الفنون من أدب وتشكيل وموسيقى وغيرها من الفنون».

أغلب المخرجين لا يحاولون معرفة ماهية السينما أساساً ولا ماهية ما يفعلونه، كل ما في الأمر بالنسبة لهم أن فكرة ما تؤاتيه ويحاول تحويلها إلى فيلم قصير، دون أن يعود بهذه الفكرة إلى متخصصين وكتاب قد يفيد منهم في عملية تنفيذ هذه الفكرة، وينفذ الفيلم ويشارك به في مهرجانات، وهكذا تتكون فكرة مغلوطة عن أفلام الفيديو في البحرين.

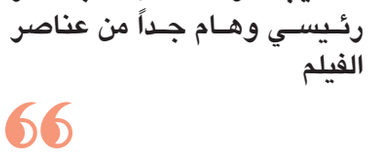

غالبية التجارب الفيلمية التي شاهدناها.. لم تهتم بالسيناريو على أنه هيكل الفيلم وقوامه نحو الوصول إلى الجودة.. فما ينتج في البحرين من أفلام قائم أساساً على فكرة تراود المخرج نفسه، فيقوم بكتابتها وتنفيذها.. وهذا بحد ذاته ليس عيباً.. إنما العيب هو الاستهانة بعنصر رئيسي وهام جداً من عناصر الفيلم